

رحيل الباحثة وعالمة الاجتماع المعروفة فاطمة المرنيسي



■ في أوائل شهر كانون الأول توفيت الباحثة المغربية فاطمة المرنيسي، عن عمر ناهز ٧٥ عاماً، بعد صراع طويل مع المرض في أيامها الأخيرة. يشكل رحيل عالمة الاجتماع النشيطية والشهيرة خسارة كبيرة للبحث السوسولوجي والأنثروبولوجي (الدراسة العلمية للإنسان، والحضارات والمجتمعات البشرية).. وكذلك اللغات العالمية، فادعت فاطمة كفاً حياً ميراً في إطار المرأة بامتياز، وقد تُرجمت كتبها إلى العديد من اللغات العالمية، واهتمت بالرحلة في كتاباتها (الإسلام والمرأة) وتحليل تطور الفكر الإسلامي، والتطورات الحديثة، وبالموازاة مع عملها في الكتابة، قادت فاطمة كفاً حياً ميراً في إطار المجتمع المدني، من أجل المساواة وحقوق المرأة، فقد ساهمت في تأسيس منظمات المجتمع المدني (القوافل).

ولدت فاطمة المرنيسي عام ١٩٤٠ في عائلة محافظة في مدينة فاس المغربية، وقد سجلها أبوها في أوائل المدارس العربية التابعة للحركة الوطنية لكيلا تدرس في مدارس فرنسا الاستعمارية آنذاك. فتابعت دراساتها في الرباط، وبعد تخرجها اتجهت إلى فرنسا ثم الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تالت شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية. وفي الثمانينيات أصبحت أستاذة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة الرباط.

كانت ظاهرة (الحريم) المنتشرة في الرباط وفي أنحاء العالم العربي قد أثرت فيها كثيراً، فاضطلقت للنضال من أجل تطوير المرأة، مستخدمة ما كسدهت من علوم ومعارف، لتكفيها وتحريرها من اللوجم والقلق الذي يسببها عليها، مركزاً على العوامل الاجتماعية والثقافية التي أوصلت المرأة العربية، وخاصة المسلمة إلى الوضع المتردي جداً.

(وشهزاد ليست مغربية.. ومن المفروض ألا تكون عربية).. (شهزاد) عنوان لأحد كتبها، عنوان من ضمن عناوين أخرى تعلن من تلقاها نسفاً عن ملامح اختارتها من داخل (قارة علم الاجتماع) لأن تكون في صف المرأة تكافح في صف بنات جنسها معهن ومن أجلهن ضد ثقافة الحريم السائدة من البحر إلى البحر.

إن الاهتمام إلى موقع الدفاع هذا في مجتمع فائق الذكورية، لبد أن يكون له ثمن يؤديه المرء، تمهيداً وتأسيساً ومنعاً وهدراً ولم، أي في أسبق الحالات حقاً ذاتي أو طرفي جاهلة مستبدية. وعندما كان سيف التمهيش مسلطاً عليها وعلى أفكارها، شعرت فاطمة أنه على كل سوسولوجي أن يبنتكر سوسولوجياً (كما قال أحد علماء الاجتماع سابقاً) باتجاه تجذير الممارسة

دائماً بالرغم من التركة الأخلاقية الغابرة للمجتمعات العربية والإسلامية). ونلاحظ أن كل ما كتبه فاطمة يؤكد أنه لن يولد المجتمع العربي ولن يكون مجتمع معرفة يتكيف مع المرات ودقائق التقنية الحديثة، ما لم يتح للمرأة أن تتعلم وتشارك في صنع القرار، وتنسج أفكارها حول شبكات البحث الإلكتروني مثلما كانت الحدات تحبك بتلقائية آلاف الأزهار الهندسية فوق السجاجيد.

من مؤلفات فاطمة المرنيسي وكتاباتها وتصريحاتها نرى أن السوسولوجيا مغربياً تعاني من إشكال التداول، فقليلة هي الأعمال التي تجد طريقها إلى النشر، وإن نشرت فإن النقاش حولها يبقى محدوداً ومحصوراً في أضيق الحدود.. لكن أعمال المرنيسي لم تعان قط من محدودية التداول، بل تعرضت أيضاً للمنع، ومن ضمن أعمالها (الحريم السياسي) عام ١٩٨٧ وسلطات منسيات) ١٩٩٠، (شهزاد) (المرأة والدين) (١٩٩١)، (والخوف من الحداثة) (والإسلام والديمقراطية) ١٩٩٢، (أحلام نساء) ١٩٩٦، ومؤلفات أخرى، إضافة إلى مؤلها فاطمة الكثير من المرات أمام المحاكم المغربية بسبب آرائها.

بدءاً من أوائل السبعينيات تخلت فاطمة تدريجياً عن نوادي هؤلاء (المناضلات) اللاتي يحملنها ما لا طاقة لهما به، ويقولن لها لم تقله أبداً، معلنة انشغالها بالأدب وتدعيم المبادرات الميدانية في حدود المتاح وقتاً وامكانات.. ولكن بالرغم من المسافة الموضوعية التي اتخذتها المرنيسي تجاه الحركة النسائية، فكانت مناضلاتها يواصلن الاعتراف من معيها قيم ويوظفن في بناء طروح نوعية لمجابهة قيم المجتمع الذكوري وتخلفن المرأة واضطهادها. ورغم انحيازها التام والمطلق لقضية المرأة، فإن فاطمة المرنيسي لم تأخذ موقفاً متجنباً ضد الرجل، فكانت موضوعية إلى أبعد الحدود في أن الرجل والمرأة يشكّلان جوهر الحياة وكيونتها، إذا توفر لهما الوعي والتربية والمناخ الاجتماعي السليم.

وأخيراً، يُذكر أن العالمة والباحثة فاطمة المرنيسي كانت مجلة (ماري كلير) الفرنسية العثماني (مراد الثالث) خفر طرق التجارة بين حلب وبغداد والطريق بين حلب ودمشق... وكان مدلل ذا مرتبة عالية تقدم له الدولة مبالغ كل جندي أثناء الحرب ٣٠٠٠ أفچه. ص ٤٣. وأحمد بل أبو ريشة من وصفه الرحالة الفرنسي (تكسيرا) عام ١٦٠٤ بالقول بأن الملك الحاكم في مدينة عانة، أمير عربي يدعى أحمد أبو ريشة، وأن سلطته تمتد إلى مناطق واسعة، وهو غير خاضع لسلطان التركي، وعلى جميع المارين في منطقتة أن يدفعوا له الرسوم على البضائع التجارية، ص ٤٧.

وشيوخ قبيلة الحميين كصالح الجرخ وفصيل النواف، وشيوخ الحسنة: فارس ومحمد وطراد من آل ملحم، ونوري الشعلان وفواز الشعلان من عرب (الرولة).. ومشرف الدحل ورمضان الشلار من عشيرة العقيدات. الأخير الذي شارك في الثورة السورية ١٩٢٥:

اندلعت الثورة السورية الكبرى في تموز ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الأطرش، وكان رمضان الشلار مقيماً في شرق الأردن، فجهل إلى جبل العرب لمقابلته سلطان باشا لمشاركة أبناء وطنه ضد الاستعمار الفرنسي ص ٩٣.

لقد كان رمضان شلار قبل ذلك وبعده دور بارز في مقارعة العرب الاستعماري في العالم، ما دعا رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل للقول: عدونا في الشرق اثنان. أحدهما هو لبنتين في الشمال، والآخر هو رمضان شلار في الجنوب. ص ٨٦ الخ، الخ.

تقول إن تقف على أخبار كل من سلف ذكرهم من رجالات القبائل، فذلك لا يعني أنك قد اطلعت على جميع بطولات أهل البادية، فهناك آخرون لم تذن سيرهم، عليك تسقط حكاياتهم من السنة الرواة كالأمير (فايض) والأمير (الكنج أبو سفايف) وغيرها.

أما أن تضع يدك على الصفحة الأخيرة من رجال وقبائل فلا يعني ذلك، أنك وضعت نفسك في صورة كل ما حفلت به زمال الصحراء وأحفظته وحوش البادية من تضحيات البدو ومآثرهم أمراء وشيوخاً وعتقاء حرب وأفراداً.

يبدأ أن ما يبيل ريق عطشك للمعرفة ويواسي توكك للاستزادة، هو أن الكتاب نفسه قد أمهدك حفنة عناوين لمصادر ومراجع على جانب من الأهمية. منها على سبيل المثال: (كتاب رحلة فتح الله الصايغ الحلبي، تحقيق يوسف شلحد، الرقة كبرى المدن الفراتية ل عبد القادر عياش.. الحقائق الناصعة ل فريق مظهر الفرعون.. تاريخ معرة النعمان ل محمد سليم الجندي.. الخيام لسود ل كارل رضوان.. تاريخ حلب ل كامل الغزي.. في الصحراء الغربية ل الويز موزيل.. الثورة السورية الكبرى ل ميشيل بروفنس.. مذكرات سلطان باشا الأطرش وغيرها..).

■ ربما لا يوجد مبدع مصري لم يعرف هذا العنوان (٤٥ شارع أحمد حشمت) في الحي الأستقرامي الهادي (الزمالك). هنا توجد شقة إدار الخراط، الذي غييه الموت أسس بعد رحلة قصيرة مع المرض، وطويلة من النسيان. كانت شقة الخراط معبداً، مز عليها أدباء الأجيال الجديدة جميعهم بلا استثناء، دخلوا في مناقشات ساخنة، ربما استعاروا كتباً من المكتبة التي أحاطت بالجدران. ولم تكن هذه هي كل المكتبة، فالصالون أيضاً مكتبة كبيرة، جدران غرفة النوم مكتبة، عندما كنت تسالنه عن أحد كتبه يغادر حجره المكتب إلى غرفة النوم دائماً ويعود للكتاب الذي تسال عنه. كما لا يمكن أن نسال الخراط أيضاً عن أديب مصري راحل أو لا يزال حياً إلا سيتهج إلى غرفة صغيرة، ربما كانت يوماً ما (بلكونة) أغلقها وضماها إلى مكتبه ليطعها اتساعاً ما، ويستخرج برفق وأحلاماً له، أعلاها يكون صاحبها قد نسيها تماماً، ولا يعرف عنها شيئاً.

أصدقائه كثيرون فقدوا دواوينهم الأولى المخطوطة لأسباب ما، وجدها عند الخراط، وآخرون اكتشفوا عندما كنت أعدهم دراسات نقدية. باستفهامه بأعمالهم الأولى التي نسيها، وفاجأهم باحتفاظه بها. لكل أديب لدى الخراط (ملف). في إحدى زيارتي له قبل سنوات استخرج برفق الملف الخاص بالروائي الراحل عبد الحكيم قاسم، يضم الرسائل المتبادلة بينهما، بطاقات بريدية، مخطوطات، ودراسات نقدية.. يبتسم عندما أسالته: من أين يأتي بالوقت في بادئ وصبر شديدين؟ مجهود ربما لا تقوم به مؤسسات كاملة، يفعله منفرداً دون مساعدة من أحد. كان إدار الخراط منذ بداياته منذراً للفن، الفن وحده.

ومن التنتين) في جمل قصيره، هو الشيخ الغمار الذي لم يترك فنماً لا يدل فيه بدلو، من القصة والرواية إلى الشعر والفن والدراسة، وولاً إلى ممارسة الشعر التشكيلي عبر إقامة العديد من المعارض التشكيلية، ليس هذا فحسب بل هو راغ لجيل من المبدعين، كان من أوائل من تدبوا حركة السبعينيات الشعرية، ثم

الاعتراف العالمي، ففي السنة التالية ٢٠٠٤ حصلت المرنيسي على جائزة (أراسموسا) الهولندية مشاركة بينها وبين عبد الكريم سوروش الإيراني، وصاق جلال العظم المفكر السوري الكبير، وكان محور الجائزة (الدين والحداثة).

ويمكن القول إن سنوات (٢٠٠٣-٢٠٠٤) كانت بمثابة تنويع عالمي بالنسبة للمرنيسي، فبعد أن نالت الجائزتين الكبيرتين الإسبانية والفريزية الأوربية رومانو برودي لعسوية (فريق الحكماء للحوار بين الشعوب والثقافات)، إلى جانب كل من أمبيرتو إيكو، وخوان ديشا نيكلولاس، وأحمد كمال وآخرين، وذلك من أجل النظر في مستقبل العلاقات الأوروبية المتوسطية.

إن تفكير المرنيسي في قضايا المرأة كما يلاحظ من كتاباتها له طابع احتجاج علمي على القراءات والكتابات التي لا تمثل المرأة ما بين المحيط والخليج إلا كحجاب وحريم وتحريم، فيما تاريخ المرأة وواقعها أكبر بكثير من هذه النظرة الاختزالية.. فالنساء في العالم العربي برأيهن (هن) قفود لكثير من النداعيات السلعية في غالب الجائزة الإسبانية الرفيعة إلا إيذاناً بموسم

تطورها، ألا وهم البدو (سكان بادية الشام) لاسيما أن هذا الموضوع لم يبل حقه من العناية، ومعظم الذين عرضوا له كانوا مستشرقين لا تخلق كتاباتهم، على صدقية بعضها، من دوافع وأهداف أقل ما يقال فيها، إنهما مغرضة وغير منصفة.

الثانية: هي اعتماد المؤلفة في غالب ما جاء في مؤلفها واستنتاجته وذهبت إليه على مصادر ومراجع ومودعات مثبتة وموثقة.

النقطة الثالثة: كون الأدبية الروائية الصحافية هويان الحسن - أبتة (الجميلة الحديبية) إحدى أكبر قبائل بادية الشام - كاتبة مسكونة بروح التراث وروح البادية وفخر الهوية: (بداية، لم أكذب عناء نزع طباعي (الروائية)، حين ينتج لنا الأدب أو الأصص، يسوغ لنا كتابة (تاريخ جميل) وفي الوقت نفسه يؤدي النص وظيفته الدال على الهوية، منطوق الأدب، قد يسمح لي بتخلص الماضي، لكن هذا في عمل قريب من حالة التوثيق يكون الأمر مشبوهاً إذا لم أتوخ الدقة والحذر والموضوعية، بصراحة..

تتابع الكاتبة في شبه اعتراف بتواضعها الجميل: (الأفضل تسمية مقدمتي (طواط) حتى لا يكتشف أمرى وأصنّف متلبسة بالإعجاب سلفاً بمن يملؤون كتابي هذا بصيحات دشت حروباً وقزوات..)

إلى أن تنتهي إلى القول: (من الغين تجاهل التاريخ القبلي للبادية السورية، خاصة إذا عرفنا أنه خلال فترة الاحتلال العثماني، لم يستطع أي من سلاطينهم بسط سيطرته على أي بقعة من البادية).

ديمقراطية البدو.. ومغامرة
منذ لحظة التفتك (رجال وقبائل) تبدأ أصابع استنساخك بتمسك طلائع انطباعات، لها بصمة السُلّمات كالتوق والتوذب والمغامرة، تداور مضارب استقبالك، لتستقر شيئاً قسبياً في مضافة بيتك.

ثمة توثب شبابي - يبل من حدية نظرة الكاتبة ومحمية شعرها - لاجتراح اعترافات، لتعاقب مركوزة في قرارة نفسها وقرار اهتمامها. يسلك أثرها مرجحاً جعلها ونداوة أفكارها..

ثمة توف في لاوعي الكاتبة (وربما في وعيها) تستشقه من الكتاب مشار عرضنا ومن سائر مؤلفاتها ومواقفها على تحقق وتنفعل في شخصها قوله المعري:

واني وإن كنت لأخبر زمسانية لآت بما لم تستطعه الأوائل ونمة مغامرة تنبذي في تصدي الأدبية - الباحثة الحسن تلميحاً وتصريحاً وقولاً وفعلاً، للمسكوت عنه

في مجتمعنا، لأكثر من احتمال وسبب: ما يتجلى في كتابها هذا وحده وفي مجموعة كتبها (معشوقة الشمس.. التروس كمشروع أدبي / ثقافي، أخذت على عاتقها مناخرته.

الصحاري لا تجامل
لقد فعلت البيئة، ويضمها الطبيعة، فعلها بالإنسان مذ كانت وكان، حتى نسب إليها، فقبل (الإنسان ابن بيئته): فالمدني غير القروي.. والجبلي يختلف عن السهلي.. وابن البادية ليس كابن الحضارة، لذا عرف البدوي - على عكس الحضري - بمهانة بيئته وحزم رأيه وقساوة طبيعه.

أما أن تغلب الفردية والاستقلالية والتفكت على ما سواها من صفات البدوي، ففعل ذلك يعود أكثر ما يعود إلى كونه وادياً نفسه معظم الأوقات وحيداً في مواجهة رعية الصحراء حرّاً وقرأ وحشياً ووحوشاً. ما يجعله أكثر اعتماداً على النفس، وتعويلاً على الرأي، وميلاً للاستقلالية، حتى عن قبيلته إذا ما رأى فيها زاجراً لحريته أو قامعا لتطلعاته.

ولنا من ظاهرة الصعاليك في تاريخنا العربي خير مثال على تفرّد البدوي وخروجه على القبيلة.

من هنا على ما يبدو اختارت هويان الحسن عنوان كتابها (رجال وقبائل).. بل من هنا ربما قدمت الرجال على القبائل، لاسيما أن الرجال الذين جاءت (الحسن) على ذكرهم أو عرضت لهم، قد فرضوا أنفسهم عليها، ولكن منهم في فرض نفسه على الكاتبة أسبابه، التي لا نخفيها، فها هي إذ تصرح في بداية عرضها لسيرة أحدهم قائلة:

ليس عيباً أني مغرمة باسم (طراد) ربما لهذا سميت بطل روايتي (سلطانات الرمل): (طراداً!

يقح لي أن أحب هذا الاسم فلما يقح لمجرد اسم علم يتألف من أربعة حروف أن يثير خيالات البدوي وأبو جعجع سراياتها.. متفقياً أثر خط الدم الذي يسلك درياً عميقاً سحيقاً في الماضي..

يصر قلبي أن يعزقكم على أناس من هذا القبيل..

لتسكون الأرواح حرة مثلما ينبغي لها أن تكون عطشية بالمقابل ستكون مجردة بالطوح.. الأثفة لها ثوابها في الصحراء، الصحراء التي ستذكرك لأنك كنت شعاعاً شهماً نبيلاً، ستردد صدك..

فالسحاري لا تجامل.. ص ٧٢

تضحيات ومآثر
أن نتخذي من قراءة (رجال وقبائل) نصّاً، فذلك لا يعني أنك انتهيت فعلاً، إذ سرعان ما تعود إليه، لتتمتع بلاغة صرخة ناكر هنا (باروكم بحضوم رباعي نشوقية)..

إدار الخراط.. رحيل شاعر الرواية

■ ربما لا يوجد مبدع مصري لم يعرف هذا العنوان (٤٥ شارع أحمد حشمت) في الحي الأستقرامي الهادي (الزمالك). هنا توجد شقة إدار الخراط، الذي غييه الموت أسس بعد رحلة قصيرة مع المرض، وطويلة من النسيان. كانت شقة الخراط معبداً، مز عليها أدباء الأجيال الجديدة جميعهم بلا استثناء، دخلوا في مناقشات ساخنة، ربما استعاروا كتباً من المكتبة التي أحاطت بالجدران. ولم تكن هذه هي كل المكتبة، فالصالون أيضاً مكتبة كبيرة، جدران غرفة النوم مكتبة، عندما كنت تسالنه عن أحد كتبه يغادر حجره المكتب إلى غرفة النوم دائماً ويعود للكتاب الذي تسال عنه. كما لا يمكن أن نسال الخراط أيضاً عن أديب مصري راحل أو لا يزال حياً إلا سيتهج إلى غرفة صغيرة، ربما كانت يوماً ما (بلكونة) أغلقها وضماها إلى مكتبه ليطعها اتساعاً ما، ويستخرج برفق وأحلاماً له، أعلاها يكون صاحبها قد نسيها تماماً، ولا يعرف عنها شيئاً.

أصدقائه كثيرون فقدوا دواوينهم الأولى المخطوطة لأسباب ما، وجدها عند الخراط، وآخرون اكتشفوا عندما كنت أعدهم دراسات نقدية. باستفهامه بأعمالهم الأولى التي نسيها، وفاجأهم باحتفاظه بها. لكل أديب لدى الخراط (ملف). في إحدى زيارتي له قبل سنوات استخرج برفق الملف الخاص بالروائي الراحل عبد الحكيم قاسم، يضم الرسائل المتبادلة بينهما، بطاقات بريدية، مخطوطات، ودراسات نقدية.. يبتسم عندما أسالته: من أين يأتي بالوقت في بادئ وصبر شديدين؟ مجهود ربما لا تقوم به مؤسسات كاملة، يفعله منفرداً دون مساعدة من أحد. كان إدار الخراط منذ بداياته منذراً للفن، الفن وحده.

ومن التنتين) في جمل قصيره، هو الشيخ الغمار الذي لم يترك فنماً لا يدل فيه بدلو، من القصة والرواية إلى الشعر والفن والدراسة، وولاً إلى ممارسة الشعر التشكيلي عبر إقامة العديد من المعارض التشكيلية، ليس هذا فحسب بل هو راغ لجيل من المبدعين، كان من أوائل من تدبوا حركة السبعينيات الشعرية، ثم

الاعتراف العالمي، ففي السنة التالية ٢٠٠٤ حصلت المرنيسي على جائزة (أراسموسا) الهولندية مشاركة بينها وبين عبد الكريم سوروش الإيراني، وصاق جلال العظم المفكر السوري الكبير، وكان محور الجائزة (الدين والحداثة).

ويمكن القول إن سنوات (٢٠٠٣-٢٠٠٤) كانت بمثابة تنويع عالمي بالنسبة للمرنيسي، فبعد أن نالت الجائزتين الكبيرتين الإسبانية والفريزية الأوربية رومانو برودي لعسوية (فريق الحكماء للحوار بين الشعوب والثقافات)، إلى جانب كل من أمبيرتو إيكو، وخوان ديشا نيكلولاس، وأحمد كمال وآخرين، وذلك من أجل النظر في مستقبل العلاقات الأوروبية المتوسطية.

إن تفكير المرنيسي في قضايا المرأة كما يلاحظ من كتاباتها له طابع احتجاج علمي على القراءات والكتابات التي لا تمثل المرأة ما بين المحيط والخليج إلا كحجاب وحريم وتحريم، فيما تاريخ المرأة وواقعها أكبر بكثير من هذه النظرة الاختزالية.. فالنساء في العالم العربي برأيهن (هن) قفود لكثير من النداعيات السلعية في غالب الجائزة الإسبانية الرفيعة إلا إيذاناً بموسم

رجال وقبائل.. توافر جمالية الأدب على صدقية التاريخ

تتكسر مواقف شيخ عشيرة يرذ على رسول السلطات التركية بالقول: (قل لحكومتك انبي لن اسلم مستجيراً بي ولو لم يبق معي رجل واحد من ولد علي.. وتنملى حصافة قوله نائب هناك: (لن تقبل بتجزئة بلدنا سورية العربية الموحدة، حتى يقبل الطفل الرضيع بتجزئة ندي أمه).

أن تقف خلال مطالعتك لرجال وقبائل على أخبار أمراء قبيلة الموالي مثل (مدلج بن طاهر) الذي أوكل له السلطان العثماني (مراد الثالث) خفر طرق التجارة بين حلب وبغداد والطريق بين حلب ودمشق... وكان مدلل ذا مرتبة عالية تقدم له الدولة مبالغ كل جندي أثناء الحرب ٣٠٠٠ أفچه. ص ٤٣. وأحمد بل أبو ريشة من وصفه الرحالة الفرنسي (تكسيرا) عام ١٦٠٤ بالقول بأن الملك الحاكم في مدينة عانة، أمير عربي يدعى أحمد أبو ريشة، وأن سلطته تمتد إلى مناطق واسعة، وهو غير خاضع لسلطان التركي، وعلى جميع المارين في منطقتة أن يدفعوا له الرسوم على البضائع التجارية، ص ٤٧.

وشيوخ قبيلة الحميين كصالح الجرخ وفصيل النواف، وشيوخ الحسنة: فارس ومحمد وطراد من آل ملحم، ونوري الشعلان وفواز الشعلان من عرب (الرولة).. ومشرف الدحل ورمضان الشلار من عشيرة العقيدات. الأخير الذي شارك في الثورة السورية ١٩٢٥:

اندلعت الثورة السورية الكبرى في تموز ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الأطرش، وكان رمضان الشلار مقيماً في شرق الأردن، فجهل إلى جبل العرب لمقابلته سلطان باشا لمشاركة أبناء وطنه ضد الاستعمار الفرنسي ص ٩٣.

لقد كان رمضان شلار قبل ذلك وبعده دور بارز في مقارعة العرب الاستعماري في العالم، ما دعا رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل للقول: عدونا في الشرق اثنان. أحدهما هو لبنتين في الشمال، والآخر هو رمضان شلار في الجنوب. ص ٨٦ الخ، الخ.

تقول إن تقف على أخبار كل من سلف ذكرهم من رجالات القبائل، فذلك لا يعني أنك قد اطلعت على جميع بطولات أهل البادية، فهناك آخرون لم تذن سيرهم، عليك تسقط حكاياتهم من السنة الرواة كالأمير (فايض) والأمير (الكنج أبو سفايف) وغيرها.

أما أن تضع يدك على الصفحة الأخيرة من رجال وقبائل فلا يعني ذلك، أنك وضعت نفسك في صورة كل ما حفلت به زمال الصحراء وأحفظته وحوش البادية من تضحيات البدو ومآثرهم أمراء وشيوخاً وعتقاء حرب وأفراداً.

يبدأ أن ما يبيل ريق عطشك للمعرفة ويواسي توكك للاستزادة، هو أن الكتاب نفسه قد أمهدك حفنة عناوين لمصادر ومراجع على جانب من الأهمية. منها على سبيل المثال: (كتاب رحلة فتح الله الصايغ الحلبي، تحقيق يوسف شلحد، الرقة كبرى المدن الفراتية ل عبد القادر عياش.. الحقائق الناصعة ل فريق مظهر الفرعون.. تاريخ معرة النعمان ل محمد سليم الجندي.. الخيام لسود ل كارل رضوان.. تاريخ حلب ل كامل الغزي.. في الصحراء الغربية ل الويز موزيل.. الثورة السورية الكبرى ل ميشيل بروفنس.. مذكرات سلطان باشا الأطرش وغيرها..).

■ ربما لا يوجد مبدع مصري لم يعرف هذا العنوان (٤٥ شارع أحمد حشمت) في الحي الأستقرامي الهادي (الزمالك). هنا توجد شقة إدار الخراط، الذي غييه الموت أسس بعد رحلة قصيرة مع المرض، وطويلة من النسيان. كانت شقة الخراط معبداً، مز عليها أدباء الأجيال الجديدة جميعهم بلا استثناء، دخلوا في مناقشات ساخنة، ربما استعاروا كتباً من المكتبة التي أحاطت بالجدران. ولم تكن هذه هي كل المكتبة، فالصالون أيضاً مكتبة كبيرة، جدران غرفة النوم مكتبة، عندما كنت تسالنه عن أحد كتبه يغادر حجره المكتب إلى غرفة النوم دائماً ويعود للكتاب الذي تسال عنه. كما لا يمكن أن نسال الخراط أيضاً عن أديب مصري راحل أو لا يزال حياً إلا سيتهج إلى غرفة صغيرة، ربما كانت يوماً ما (بلكونة) أغلقها وضماها إلى مكتبه ليطعها اتساعاً ما، ويستخرج برفق وأحلاماً له، أعلاها يكون صاحبها قد نسيها تماماً، ولا يعرف عنها شيئاً.

أصدقائه كثيرون فقدوا دواوينهم الأولى المخطوطة لأسباب ما، وجدها عند الخراط، وآخرون اكتشفوا عندما كنت أعدهم دراسات نقدية. باستفهامه بأعمالهم الأولى التي نسيها، وفاجأهم باحتفاظه بها. لكل أديب لدى الخراط (ملف). في إحدى زيارتي له قبل سنوات استخرج برفق الملف الخاص بالروائي الراحل عبد الحكيم قاسم، يضم الرسائل المتبادلة بينهما، بطاقات بريدية، مخطوطات، ودراسات نقدية.. يبتسم عندما أسالته: من أين يأتي بالوقت في بادئ وصبر شديدين؟ مجهود ربما لا تقوم به مؤسسات كاملة، يفعله منفرداً دون مساعدة من أحد. كان إدار الخراط منذ بداياته منذراً للفن، الفن وحده.

ومن التنتين) في جمل قصيره، هو الشيخ الغمار الذي لم يترك فنماً لا يدل فيه بدلو، من القصة والرواية إلى الشعر والفن والدراسة، وولاً إلى ممارسة الشعر التشكيلي عبر إقامة العديد من المعارض التشكيلية، ليس هذا فحسب بل هو راغ لجيل من المبدعين، كان من أوائل من تدبوا حركة السبعينيات الشعرية، ثم

تطورها، ألا وهم البدو (سكان بادية الشام) لاسيما أن هذا الموضوع لم يبل حقه من العناية، ومعظم الذين عرضوا له كانوا مستشرقين لا تخلق كتاباتهم، على صدقية بعضها، من دوافع وأهداف أقل ما يقال فيها، إنهما مغرضة وغير منصفة.

الثانية: هي اعتماد المؤلفة في غالب ما جاء في مؤلفها واستنتاجته وذهبت إليه على مصادر ومراجع ومودعات مثبتة وموثقة.

النقطة الثالثة: كون الأدبية الروائية الصحافية هويان الحسن - أبتة (الجميلة الحديبية) إحدى أكبر قبائل بادية الشام - كاتبة مسكونة بروح التراث وروح البادية وفخر الهوية: (بداية، لم أكذب عناء نزع طباعي (الروائية)، حين ينتج لنا الأدب أو الأصص، يسوغ لنا كتابة (تاريخ جميل) وفي الوقت نفسه يؤدي النص وظيفته الدال على الهوية، منطوق الأدب، قد يسمح لي بتخلص الماضي، لكن هذا في عمل قريب من حالة التوثيق يكون الأمر مشبوهاً إذا لم أتوخ الدقة والحذر والموضوعية، بصراحة..

تتابع الكاتبة في شبه اعتراف بتواضعها الجميل: (الأفضل تسمية مقدمتي (طواط) حتى لا يكتشف أمرى وأصنّف متلبسة بالإعجاب سلفاً بمن يملؤون كتابي هذا بصيحات دشت حروباً وقزوات..)

إلى أن تنتهي إلى القول: (من الغين تجاهل التاريخ القبلي للبادية السورية، خاصة إذا عرفنا أنه خلال فترة الاحتلال العثماني، لم يستطع أي من سلاطينهم بسط سيطرته على أي بقعة من البادية).

ديمقراطية البدو.. ومغامرة
منذ لحظة التفتك (رجال وقبائل) تبدأ أصابع استنساخك بتمسك طلائع انطباعات، لها بصمة السُلّمات كالتوق والتوذب والمغامرة، تداور مضارب استقبالك، لتستقر شيئاً قسبياً في مضافة بيتك.

ثمة توثب شبابي - يبل من حدية نظرة الكاتبة ومحمية شعرها - لاجتراح اعترافات، لتعاقب مركوزة في قرارة نفسها وقرار اهتمامها. يسلك أثرها مرجحاً جعلها ونداوة أفكارها..

ثمة توف في لاوعي الكاتبة (وربما في وعيها) تستشقه من الكتاب مشار عرضنا ومن سائر مؤلفاتها ومواقفها على تحقق وتنفعل في شخصها قوله المعري:

واني وإن كنت لأخبر زمسانية لآت بما لم تستطعه الأوائل ونمة مغامرة تنبذي في تصدي الأدبية - الباحثة الحسن تلميحاً وتصريحاً وقولاً وفعلاً، للمسكوت عنه

تتكسر مواقف شيخ عشيرة يرذ على رسول السلطات التركية بالقول: (قل لحكومتك انبي لن اسلم مستجيراً بي ولو لم يبق معي رجل واحد من ولد علي.. وتنملى حصافة قوله نائب هناك: (لن تقبل بتجزئة بلدنا سورية العربية الموحدة، حتى يقبل الطفل الرضيع بتجزئة ندي أمه).

أن تقف خلال مطالعتك لرجال وقبائل على أخبار أمراء قبيلة الموالي مثل (مدلج بن طاهر) الذي أوكل له السلطان العثماني (مراد الثالث) خفر طرق التجارة بين حلب وبغداد والطريق بين حلب ودمشق... وكان مدلل ذا مرتبة عالية تقدم له الدولة مبالغ كل جندي أثناء الحرب ٣٠٠٠ أفچه. ص ٤٣. وأحمد بل أبو ريشة من وصفه الرحالة الفرنسي (تكسيرا) عام ١٦٠٤ بالقول بأن الملك الحاكم في مدينة عانة، أمير عربي يدعى أحمد أبو ريشة، وأن سلطته تمتد إلى مناطق واسعة، وهو غير خاضع لسلطان التركي، وعلى جميع المارين في منطقتة أن يدفعوا له الرسوم على البضائع التجارية، ص ٤٧.

وشيوخ قبيلة الحميين كصالح الجرخ وفصيل النواف، وشيوخ الحسنة: فارس ومحمد وطراد من آل ملحم، ونوري الشعلان وفواز الشعلان من عرب (الرولة).. ومشرف الدحل ورمضان الشلار من عشيرة العقيدات. الأخير الذي شارك في الثورة السورية ١٩٢٥:

اندلعت الثورة السورية الكبرى في تموز ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الأطرش، وكان رمضان الشلار مقيماً في شرق الأردن، فجهل إلى جبل العرب لمقابلته سلطان باشا لمشاركة أبناء وطنه ضد الاستعمار الفرنسي ص ٩٣.

لقد كان رمضان شلار قبل ذلك وبعده دور بارز في مقارعة العرب الاستعماري في العالم، ما دعا رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل للقول: عدونا في الشرق اثنان. أحدهما هو لبنتين في الشمال، والآخر هو رمضان شلار في الجنوب. ص ٨٦ الخ، الخ.

تقول إن تقف على أخبار كل من سلف ذكرهم من رجالات القبائل، فذلك لا يعني أنك قد اطلعت على جميع بطولات أهل البادية، فهناك آخرون لم تذن سيرهم، عليك تسقط حكاياتهم من السنة الرواة كالأمير (فايض) والأمير (الكنج أبو سفايف) وغيرها.

أما أن تضع يدك على الصفحة الأخيرة من رجال وقبائل فلا يعني ذلك، أنك وضعت نفسك في صورة كل ما حفلت به زمال الصحراء وأحفظته وحوش البادية من تضحيات البدو ومآثرهم أمراء وشيوخاً وعتقاء حرب وأفراداً.

يبدأ أن ما يبيل ريق عطشك للمعرفة ويواسي توكك للاستزادة، هو أن الكتاب نفسه قد أمهدك حفنة عناوين لمصادر ومراجع على جانب من الأهمية. منها على سبيل المثال: (كتاب رحلة فتح الله الصايغ الحلبي، تحقيق يوسف شلحد، الرقة كبرى المدن الفراتية ل عبد القادر عياش.. الحقائق الناصعة ل فريق مظهر الفرعون.. تاريخ معرة النعمان ل محمد سليم الجندي.. الخيام لسود ل كارل رضوان.. تاريخ حلب ل كامل الغزي.. في الصحراء الغربية ل الويز موزيل.. الثورة السورية الكبرى ل ميشيل بروفنس.. مذكرات سلطان باشا الأطرش وغيرها..).

■ ربما لا يوجد مبدع مصري لم يعرف هذا العنوان (٤٥ شارع أحمد حشمت) في الحي الأستقرامي الهادي (الزمالك). هنا توجد شقة إدار الخراط، الذي غييه الموت أسس بعد رحلة قصيرة مع المرض، وطويلة من النسيان. كانت شقة الخراط معبداً، مز عليها أدباء الأجيال الجديدة جميعهم بلا استثناء، دخلوا في مناقشات ساخنة، ربما استعاروا كتباً من المكتبة التي أحاطت بالجدران. ولم تكن هذه هي كل المكتبة، فالصالون أيضاً مكتبة كبيرة، جدران غرفة النوم مكتبة، عندما كنت تسالنه عن أحد كتبه يغادر حجره المكتب إلى غرفة النوم دائماً ويعود للكتاب الذي تسال عنه. كما لا يمكن أن نسال الخراط أيضاً عن أديب مصري راحل أو لا يزال حياً إلا سيتهج إلى غرفة صغيرة، ربما كانت يوماً ما (بلكونة) أغلقها وضماها إلى مكتبه ليطعها اتساعاً ما، ويستخرج برفق وأحلاماً له، أعلاها يكون صاحبها قد نسيها تماماً، ولا يعرف عنها شيئاً.

أصدقائه كثيرون فقدوا دواوينهم الأولى المخطوطة لأسباب ما، وجدها عند الخراط، وآخرون اكتشفوا عندما كنت أعدهم دراسات نقدية. باستفهامه بأعمالهم الأولى التي نسيها، وفاجأهم باحتفاظه بها. لكل أديب لدى الخراط (ملف). في إحدى زيارتي له قبل سنوات استخرج برفق الملف الخاص بالروائي الراحل عبد الحكيم قاسم، يضم الرسائل المتبادلة بينهما، بطاقات بريدية، مخطوطات، ودراسات نقدية.. يبتسم عندما أسالته: من أين يأتي بالوقت في بادئ وصبر شديدين؟ مجهود ربما لا تقوم به مؤسسات كاملة، يفعله منفرداً دون مساعدة من أحد. كان إدار الخراط منذ بداياته منذراً للفن، الفن وحده.

ومن التنتين) في جمل قصيره، هو الشيخ الغمار الذي لم يترك فنماً لا يدل فيه بدلو، من القصة والرواية إلى الشعر والفن والدراسة، وولاً إلى ممارسة الشعر التشكيلي عبر إقامة العديد من المعارض التشكيلية، ليس هذا فحسب بل هو راغ لجيل من المبدعين، كان من أوائل من تدبوا حركة السبعينيات الشعرية، ثم

تطورها، ألا وهم البدو (سكان بادية الشام) لاسيما أن هذا الموضوع لم يبل حقه من العناية، ومعظم الذين عرضوا له كانوا مستشرقين لا تخلق كتاباتهم، على صدقية بعضها، من دوافع وأهداف أقل ما يقال فيها، إنهما مغرضة وغير منصفة.

الثانية: هي اعتماد المؤلفة في غالب ما جاء في مؤلفها واستنتاجته وذهبت إليه على مصادر ومراجع ومودعات مثبتة وموثقة.

النقطة الثالثة: كون الأدبية الروائية الصحافية هويان الحسن - أبتة (الجميلة الحديبية) إحدى أكبر قبائل بادية الشام - كاتبة مسكونة بروح التراث وروح البادية وفخر الهوية: (بداية، لم أكذب عناء نزع طباعي (الروائية)، حين ينتج لنا الأدب أو الأصص، يسوغ لنا كتابة (تاريخ جميل) وفي الوقت نفسه يؤدي النص وظيفته الدال على الهوية، منطوق الأدب، قد يسمح لي بتخلص الماضي، لكن هذا في عمل قريب من حالة التوثيق يكون الأمر مشبوهاً إذا لم أتوخ الدقة والحذر والموضوعية، بصراحة..

تتابع الكاتبة في شبه اعتراف بتواضعها الجميل: (الأفضل تسمية مقدمتي (طواط) حتى لا يكتشف أمرى وأصنّف متلبسة بالإعجاب سلفاً بمن يملؤون كتابي هذا بصيحات دشت حروباً وقزوات..)

إلى أن تنتهي إلى القول: (من الغين تجاهل التاريخ القبلي للبادية السورية، خاصة إذا عرفنا أنه خلال فترة الاحتلال العثماني، لم يستطع أي من سلاطينهم بسط سيطرته على أي بقعة من البادية).

ديمقراطية البدو.. ومغامرة
منذ لحظة التفتك (رجال وقبائل) تبدأ أصابع استنساخك بتمسك طلائع انطباعات، لها بصمة السُلّمات كالتوق والتوذب والمغامرة، تداور مضارب استقبالك، لتستقر شيئاً قسبياً في مضافة بيتك.

ثمة توثب شبابي - يبل من حدية نظرة الكاتبة ومحمية شعرها - لاجتراح اعترافات، لتعاقب مركوزة في قرارة نفسها وقرار اهتمامها. يسلك أثرها مرجحاً جعلها ونداوة أفكارها..

ثمة توف في لاوعي الكاتبة (وربما في وعيها) تستشقه من الكتاب مشار عرضنا ومن سائر مؤلفاتها ومواقفها على تحقق وتنفعل في شخصها قوله المعري:

واني وإن كنت لأخبر زمسانية لآت بما لم تستطعه الأوائل ونمة مغامرة تنبذي في تصدي الأدبية - الباحثة الحسن تلميحاً وتصريحاً وقولاً وفعلاً، للمسكوت عنه